دروس عبر الخط: التاريخ: 2021/01/10

المقياس: التحليل النفسي للأدب. **الأستاذ:** فريد زغلامي.

الجمهور المستهدف: السنة الثالثة ليسانس تخصص: نقد ومناهج

المحاضرة الأولى: التحليل النفسي؛ مدخل مفاهيمي.

يُعدُّ التحليل النفسي من بين العلوم الإنسانية التي أسهمت إسهاما فعالا في إثراء الدرس النقدي الحديث؛ وذلك عن طريق إمداده بآليات إجرائية مكّنته من تقديم تفسيرات جديدة للخطاب الأدبي قائمة على فرضيات وأسس علمية.

تسعى هذه المحاضرة إلى التعرف على التحليل النفسي؛ وذلك من خلال تحديد مفهومه وهدفه وإجراءاته وتاريخ علم النفس وأقسام الجهاز النفس في تصور فرويد وطريقة عمله، وأخيرا بعض مصطلحات ومفاهيم التحليل النفسي.

1)مفهوم علم النفس(Psychologie):

يجدر بنا أولا قبل أن نتطرق لتحديد مفهوم التحليل النفسي أن نتطرق إلى مفهوم علم النفس وموضوعه.

تتكون كلمة علم النفس في اللغات الأجنبية (الفرنسية والإنجليزية) من مقطعين:" Psycho " وتشير إلى النفس أو الروح، و "Logie" أو "Logos" اليونانية والتي تفيد معنى العلم.

أما في الاصطلاح فيعني علم النفس باختصار:" الدراسة العلمية لسلوك الكائنات الحية وخصوصا الإنسان؛ وذلك بهدف التوصل إلى فهم هذا السلوك وتفسيره والتنبؤ به والتحكم فيه".

2) مفهوم التحليل النفسي(Psychanalyse):

تتكون كلمة التحليل النفسي أيضا في اللغات الأوروبية من لفظين اثنين هما: "Psycho" والتي تعني الروح أو النفس، و"Analyse" وتعني التحليل. وكان يطلق على هذا المصطلح في بداية الأمر(Pschoanalyse)، على أصل التركيب، ثم لما كثر الاستعمال، وتواتر التكرار، وحُذف منه حرف "O" لتيسير النطق وتسهيل الاستعمال.

أما اصطلاحا: فالتحليل النفسي مصطلح أنشأه "سيغموند فرويد" (Sigmund Freud) وهو منهج من مناهج علم النفس الكلينيكي أو العيادي. ولمفهوم التحليل النفسي أربعة أسس مركزية:

1) نظرية حول طريقة عمل النفس، تنهض على وضع اللاوعي على أساس أنه موضوع يوجّه بعض التصرفات انطلاقا من عناصر مكبوتة.
2) باعتباره منهجا علاجيا للمشاكل النفسية.
3) باعتباره منهجا للبحث النفساني المعمق.
4) باعتباره طريقة للنظر في الظواهر الثقافية والاجتماعية مثل: الأدب، العروض النفسية، السياسة والجماعات... .

3) هدف التحليل النفسي:

التحليل النفسي أسلوب علاجي ومنهج من مناهج علم النفس غايته الكشف، بواسطة طرائق مختلفة (التنويم المغناطيسي، التداعي الحر...) على هواجس النفس وعللها الباطنة، عبر إثارة الرغبات الجسمية والصور المؤلمة التي يسبب وجودها اضطرابات نفسية وربما جسمية، فيعمل المعالج على اكتشاف هذه الأعراض المرضية ومسبباتها وإخراجها من اللاشعور إلى الشعور فيُشفى المريض.

4) إجراءات التحليل النفسي:

لا تكاد تخرج إجراءات التحليل النفسي عن المساءلة المباشرة للمريض، وتأويل الأقوال التلقائية التي يوجّه إليها المريض بكل التلطفات الممكنة، بالإضافة إلى الالتجاء إلى تأويل الأحلام وزلات القلم واللسان والإبداع الفني ... .

وعليه فالتحليل النفسي أسلوب علاجي يعمل على تحليل الأزمات النفسية الباطنة الحادة التي تتبدى أعراضها في السلوك الشخصي للمصاب. وقد أرجع فرويد هذه الأزمات إلى أسبابها البعيدة التي تعود حسبه إلى الطفولة المبكرة والصدمات النفسية التي يكون الشخص المريض قد تعرّض لها بما مضى من حياته.

وكانت غاية فرويد من ذلك أن يزيل الآلام عن الناس والصدمات النفسية التي تثقل حياتهم، وليس بتنويم تلك الآلام ولكن بالسعي إلى الغوص في كنهها، والحرص على معرفة حقيقتها، وكان فرويد يزعم أن هذه الحقيقة ليست إلا الرغبة الجنسية.

5) تاريخ علم النفس:

أ) ملامح الدراسة النفسية عند اليونان

لم يكن علم النفس وليد العصر الحديث طفرة واحدة، بل له إرهاصات في الفلسفة القديمة منذ "أفلاطون" الذي كان لأفكاره تأثيرها البالغ على الفلاسفة وعلم النفس بعده. فقد اعتبر النفس ذات طبيعة روحية وهي تختلف عن الجسم؛ فالنفس قد وجدت قبل الجسم وكان مقرها عالم المثل والأفكار. وهي خالدة بعد فناء الجسم، وهي تنتقل من جسم لآخر حسب عملها، فإن كان ما اقترفه من ذنوب نادرا حلّت في جسم رجل، وإن كانت قليلة حلّت في جسم امرأة، أما إن كانت كثيرة فحلّت الروح في جسم حيوان.

وقد قسّم أفلاطون النفس إلى نفس عاقلة، وهذه مقرها الرأس، وهي بذلك قريبة من السماء. وإما نفس غاضبة، وهذه مقرها القلب، وإما نفس شهوانية، وهذه مقرها البطن. وللنفس أثر على

الشخصية، فشخصية الفرد صاحب النفس العاقلة شخصية أقرب إلى الكمال، وهو بذلك أفضل من صاحب النفس الغاضبة والشهوانية؛ لذلك ينبغي أن تخضع النفس الشهوانية للنفس الغاضبة، وتخضع هذه الأخيرة للنفس العاقلة.

فالفلاسفة عند أفلاطون هم أصحاب النفس العاقلة، أما الجند أو المحاربون فالنفس الغاضبة عندهم هي المسيطرة، فهي التي تدفعهم إلى الحرب والدفاع، أما عامة الناس فهم أصحاب النفس الشهوانية.

والنفس عند أفلاطون هي التي تحرك الجسم... فهي كالربان للسفينة، وهما مستقلان لاختلاف طبيعتهما.

أما "أرسطو طاليس" فقد ألف كتابا مهما بعنوان النفس، لعب دورا مهما في فهم طبيعة الإنسان، وتميزه عن بقية الأنواع الحيوانية. والنفس والجسم عند أرس كلٌ واحدٌ لا يتجزأ؛ ذلك لأن الإنسان مادة وصورة ... فالمادة هي الجسم، والصورة هي النفس، والدليل على ذلك أن الشعور والانفعال يصحبهما تغيرات عضوية، والإنسان متحرك والنفس مصدر الحركة والحياة معا ... ووظيفة النفس الإنسانية التفكير والتعقل، وهما أعلى الوظائف.

إن علم النفس هو علم السلوك، وقد سبقنا أرسطو إلى هذا عندما قال عن السلوك:" إنه تفاعل الكائن الحي والظروف البيئية/ المحيط".

ب)ملامح الدراسة النفسية عند العرب:

هناك من فلاسفة العرب من قال: إن هناك قدرات عقلية للنفس هي الإحساس والإدراك والتذكر والتخيل والتفكير، وحاول أن يبحث عن علاقة هذه القدرات بالجسم. كذلك هناك من اهتم بالدوافع الفطرية العضوية والمكتسبة عن طريق إعلاء الدوافع وتكوين العادات وتعويد النفس العادات الصالحة. ومن بين هؤلاء الفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد وابن ماجه وغيرهم من الفلاسفة.

ج) علم النفس في العصر الحديث:

اختص رجال الدين في النصرانية والإسلام بدراسة الروح، والفلاسفة بدراسة العقل، الأمر الذي جعل هذه المرحلة محلة دراسة العقل؛ إذًا فعلم النفس في العصر الحديث هو علم دراسة العقل، وإن كانت المحاولات الفكرية تدور في نطاق ثنائية الجسم والعقل، ذلك كله بطريقة تأملية.

ويعتبر "رونيه ديكارت" المؤسس الثاني لعلم النفس؛ وذلك أنه قد بدأ في الدراسة النفسية مستخدما الاكتشافات العلمية التي قامت في علم الفيزيولوجيا وعلم الطبيعة. فقد حاول حل مشكلة العلاقة بين العقل والجسم؛ ذلك أن الجسم من خصائصه الجوهرية الامتداد في المكان فهو يشغل حيزا من الفراغ، أما خاصية العقل فهي التفكير والشعور؛ لذا فهما مختلفان ومتمايزان، وليس بينهما أي ارتباط طبيعي؛ إنما الارتباط هو تفاعل ميكانيكي يجري في الغدة الصنوبرية في المخ.

ويرى "ديكارت" أن الحيوان لا يحس ولا يشعر ولا يفكر، إنما هو يستجيب للمنبهات الخارجية، أما الإنسان فهو يعقل"... والشعور أهم خاصية من خواص العقل"، والشعور هو ما يفكر فيه الإنسان وما يستطيع ملاحظته في نفسه ويعبر عنه؛ وبذلك أصبح علم النفس هو علم الشعور.

د) المدرسة الإنجليزية الترابطية:

ظهرت المدرسة الإنجليزية الترابطية التي قام على تأسيسها "جون لوك" ومن أنصارها "هيوم" و"سبنسر" تلك المدرسة التي كان لها أثر بالغ في توجيه الدراسة النفسة حتى نهاية القرن التاسع عشر. ومن المسلمات الأساسية التي كانت تعتنقها هذه المدرسة أن الإنسان يولد صفحة بيضاء وعقله صفحة بيضاء، تنقش الخبرات الحسية عليها ما تريد، وليس قبل الخبرة في العقل من شيء، وتكون هذه الإحساسات في أول أمرها غير مترابطة وغير منظّمة، ثم تترابط وتنتظم

هذه العناصر، ومن هذه الترابطات تنشأ العمليات العقلية مثل: الإدراك والتخيل والتصور والتفكير والإبداع؛ لذلك فقد تبين أن مهمة علم النفس في نظر هذه المدرسة هي تحليل المركبات العقلية الشعورية ثم تفسير تجمعاتها وانتظامها في وحدات مركبة.

هـ) القرن التاسع عشر والعشرون:

ومع هذا فقد ظل علم النفس فرعا من الفلسفة التأملية و العقلية وقتا طويلا وإن تحدد موضوعه بعض الشيء، فإن منهج البحث فيه يظل جدلا وتأملا فلسفيا ،ثم أخذ التفكير الإنساني بعد ذلك ينحو وجهة دراسة الظواهر الطبيعية و القوانين ، فظهر كثير من الاكتشافات العلمية في ميادين الفسيولوجيا والفيزياء و الرياضيات الأمر الذي أثر في مجرى الدراسات السيكولوجية ،فلقد اكتشفت في هذه الفترة وظائف الجهاز العصبي ،وقامت دراسات على الأساس العصبي للفعل المنعكس ،ووضعت اصول علم الغدد الصماء وفكرة التوازن الفسيولوجي.

و) سيغموند فرويد :

بينت جهود "سيغموند فرويد" وجود حياة لاشعورية للفرد إلى جانب حياته الشعورية . فحياة الفرد اللاشعورية فيها دوافع ومخاوف وتفكير وتذكر و إدراك ، وكل هذه تجري على نحو لاشعوري ومن تم فهي تكوِن حياته اللاشعورية ، وهذه كلها قد لا يفطن إليها الفرد وغالبا لا يفطن، وإنما تبدو في سلوكه القسري ، و غالبا ما تكون سببا للاضطرابات النفسية أو العقلية، وأصبحت هذه أمور لا يغفل عنها علاج اضطرابات الشخصية والسلوك ، بل في تفسير الأحلام وزلات اللسان والنسيان . لقد كشف "فرويد" عن الحياة اللاشعورية للإنسان وكيف أنها وراء كل أنماط السلوك التي تصدر عن الفرد ، وهي أشد تأثيرا من الجانب الشعوري.

ولقد ابتدع "فرويد" طريقة فنية للعلاج النفسي باستخدام التداعي الحر للأفكار وأسلوب الطرح، واهتم بدراسة الشخصية اهتماما بالغا حتى أضحى علم النفس عند هذه المدرسة هو علم نفس الشخصية.

وتناول الشخصية في سوائها أو شذوذها، وكيف أن لطفولة الفرد أثرا بالغ الشدة على حياته فيما بعد هذه المرحلة، وأن ملامح حياة الفرد تتشكل في طفولته، وأن علاقة الطفل بوالديه لها دورها للتمهيد للإصابة بالإمراض النفسية والعقلية . كذلك عرض لمفهوم الغريزة الجنسية، وكيف أنها في نموها تتواكب مع النمو النفسي للفرد، كما أنه وضع الصورة الدينامية للشخصية وأن ملامحها تتحدد في ضوء الهو و الأنا و الأنا الأعلى وأن العلاقة الدينامية بينهم هي التي تحدد نمط الشخصية في ضوء السواء أو الشذوذ .

6) أقسام الجهاز النفسي عند فرويد وآلية عمله:

يُقَسّمُ الجهاز النفسي عند فرويد بدوره إلى ثلاثة قوى متصارعة:

1) الهو (ID): ويشمل «كل ما هو موروث، كل ما يظهر عند الميلاد، كل ما هو مثبت في الجِبِلَّةِ؛ لذا فهو يتألف أولا وقبل كل شيء من الميول الغريزية»، إنه ذلك الانحراف الكامن في نفس الإنسان، أو الرغبة الملحة في إشباع شهوات النفس ونزواتها.

2) الأنا (Ego): يتوسط بين الهو والعالم الخارجي، وظيفته «السيطرة على الحركات الإرادية وحفظ الذات»، سعيا للتكيف مع المحيط الاجتماعي.

3) الأنا الأعلى (Super Ego): وهو «راسب من رواسب فترة الطفولة الطويلة التي يعيش فيها الإنسان الناشئ معتمدا على والديه ... ولا يقتصر تأثير الوالدين – بطبيعة الحال – على طبيعة الوالدين فحسب، بل إن من خلالهما ليظهر التأثير المتأصل للتقاليد العائلية والعنصرية والقومية، كما تدخل فيه طبيعة البيئة الاجتماعية التي يمثلانها»، وبصفة عامة فالأنا الأعلى هو الضمير ممثلا في الجانب الديني والأخلاقي والاجتماعي السائد في مجتمع ما وفي زمن ما.

وحقيقة هذا التصور لأقسام الجهاز النفسي عند فرويد وآلية عمله أن في فطرة الإنسان التي جُبِل عليها تكمن طاقة جنسية/ ليبيدو جموحة تبحث عن الإشباع، فيأتي دور الأنا/الذات الواعية التي تقرر ما إذا كان يُسمح لهذه الطاقة بالإشباع، أو إرجاء هذا الإشباع لأحيان وظروف مواتية في العالم الخارجي/الواقعي، أو قمع هذه الرغبة نهائيا حفاظا على قيم المجتمع، وحرصا على متطلبات الأنا الأعلى، فتُكبت هذه الرغبات في أعماق النفس الإنسانية (اللاشعور)، فينشأ عن هذا القمع/التدجين/الكبح عقد (عقدة أوديب، عقدة إلكترا، ...)، وما إن يخفت تأثير الأنا الأعلى، تتاح الفرصة إلى الكائن البشري، فَيُصَعِّدَ تلك الرغبات المكبوتة، ويشبعها بكيفيات مختلفة: الأحلام، الهذيان، الأعمال الفنية والأدبية.

7) من مصطلحات التحليل النفسي:

1/ **الإسقاط (Projection)**: هو حيلة أو عملية تلجأ إليها النفس البشرية في حلها للصراع الدائر في الشخصية حول دافع نفسي معين بأن تتخلص من هذا الدافع فترميه، أي تسقطه على شخص خارجي أو شيء خارجي . مثال ذلك : أن يسقط البخيل دافع البخل على الآخرين فيصفهم ظلما بالبخل الشديد دون أن يفطن أن البخل جزء من نفسه هو و ليس من الاخرين . فالإسقاط يتم على مستوى لاشعوري دون أن يفطن الفرد إلى أنه يقوم بعملية الإسقاط هذه .

2/ الليبيدو (Libido) : يشير المصطلح في اصله اللاتيني إلى الرغبة أو الشهوة، وقد استعاره فرويد من "مول" " **Mool** "، وهو الطاقة التي تستخدمها غرائز الحياة في عملها للمحافظة على الحياة و تكاثر النوع ، ومنها الجوع والعطش و الجنس، فهو طاقة حفظ الذات (الأنا) و حفظ النوع (الجنسية) . فهو على حد تعبير "فرويد" طاقة الدافع الغريزي للحياة التي تتوزع بين الأنا فتكون ليبيدو ونرجسيا وبين الموضوعات والعالم الخارجي بعامة فتكون ليبيدو موضوع .

3/ العصاب (Neurosis) : هو اضطرابات وظيفية أو علة نفسية المنشأ يتجلى في أعراض عصابية، وهي تلك العلامات والدلالات التي يشعر بها المريض سواء أكانت داخلية أو خارجية (كالقهر ، الصراخ، الألم النفسي، الجمود المطلق،...) ، يرى فيها التحليل النفسي تعبيرا رمزيا عن صراع نفسي يستمد أصوله من التاريخ الطفلي للفرد ، وتمثل تسوية بين الرغبة والدفاع أو هو حل وسط بينهما في مستوى المتخيل، فالعرض والحالة إشباع بديل للرغبة وحل توفيقي .

4/ التسامي (Sublimation) : توجيه الرغبات صوب غاية تحظى بتقدير اجتماعي أكب، فقد يجد المرء متنفسا لا واعيا للإحباط الجنسي في المدارس و دور رعاية المسنين وغيرها، وبالنسبة لفرويد ، تتحقق الحضارة ذاتها بفضل ذلك التسامي، فعن طريق تحويل وجهة غرائزها وإخضاعها لهذه الأهداف الأسمى، يجرى خلق التاريخ الثقافي ذاته .

5/ الكبت (Suppression) : حيلة تلجأ إليها النفس الإنسانية، وتقوم بها الأنا في الشخصية، وتتم بشكل لاشعوري؛ لا يحس الفرد أنه يقوم بعملية الكبت ولا يعي بها. وفي هذه الحيلة يقوم الفرد (الأنا) باستبعاد الدافع النفسي كلية أو باستبعاد الذكريات والأفكار أو المشاعر من منطقة الشعور إلى منطقة اللاشعور، وعند ذلك فإن الدوافع أو الذكريات أو الأفكار والمشاعر لا يعود يحس بها الإنسان أو يدركها أو يعلم عنها شيئا، بل تصبح لا شعورية.

6) عقدة أوديب (Oedipus complex): هي جملة الرغبات الجنسية والعدوانية التي يشعر بها الطفل تجاه والديه، ويبلغ ذروته في الحقبة بين ثلاث وخمس سنوات.

7) الهستيريا(Hysteria): اضطراب نفسي له أعراضه النفسية والجسمية، حيث يكون المريض في حالة من شبه الوعي والهلوسات والنساوة، والانفجارات الانفعالية من البكاء أو الصراخ والتي دائما ما تكون في حضور الآخرين.

8) هذاء العظمة (This is the greatness): الهذاء أولا أفكار شاذة وغير منطقية توجد لدى المريض، ويعتقد في صحتها ويستحق إقناعه ببطلانها.

أما هذاء العظمة فهو إحساس مبالغ فيه بأن الفرد شخصية عظيمة، ويكون الفرد معتقدا في صدق هذه الفكرة وواقعيتها، بحيث إن تصرفاته تدور حول قناعته بهذا الاعتقاد.

9) صدمة الميلاد: وهي الصدمة التي يعيشها الفرد في طفولته نتيجة انفصاله عن رحم أمه وخروجه منه إلى معاناة في مراحل النمو المتتالية.

مراجع المحاضرة:

1) زين الدين المختاري: المدخل إلى نظرية النقد النفسي، سيكولوجية الصورة الشعرية في نقد العقاد (نموذجا)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1998.
2) كامل محمد عويضة: رحلة في علم النفس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1996.
3) تيري إيغلتون: نظرية الأدب، تر: (ثائر ديب)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، د .ط، 1995.
4) سيغموند فرويد: الموجز في التحليل النفسي، تر : (سامي محمد علي وعبد السلام القفاش)، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة، مصر، د . ط، 2000.
5) عبد الملك مرتاض في نظرية النقد (متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، دار هومه، الجزائر، ط1، 2005.
6) يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، دار جسور، المحمدية، الجزائر، ط1، 2007.
7) شكري عزيز ماضي: في نظرية الأدب، دار الفارس، عمان، الأردن، ط1، 2005.